أحوال العراق الاجتماعيّة والاقتصاديّة وأثرهُما في تراجع الروح العسكريّة وتنامي المعارضة الدينيّة في القرن الأول الهجري

أ.م.د. حمّاد فرحان حمّادي المحمدي
جامعة الأنبار – كلية التربية للبنات

المستخلص

شهد القرن الأول الهجري تحولات سياسية واجتماعية وإقتصاديّة ودينيّة بارزة نتجت أساساً عن ظهور الأسلام وما واكبه من فتوح عظيمة شملت أجزاء شاسعة من العالم المعروف آنذاك ، ونشأت بطبيعة الحال علاقات جديدة على أثر ذلك بين العنصر العربي الغالب وعناصر الشعوب المغلوبة ، ويبدو أنّ العناصر الأخيرة أُخذت بهذه التحولات المفاجئة والحاسمة فلم تفق من هول المفاجأة إلّا بعد حين ، فظلّ العنصر العربي طوال هذه الحقبة هو العامل المؤثر والفعّال في سير الحوادث التاريخيّة ، وهو أمر نلحظه بوضوح في الكتابات التي أرّخت لهذا العصر ، والتي تكاد تقتصر على تتبع نشاطات العرب الفاتحين ، وكان لزاماً علينا في هذا البحث أن نعرّج على بعض ملامح العنصر العربي الأجتماعية والأقتصاديّة والدينيّة وأثرها في تراجع الروح العسكرية وتنامي حركات المعارضة الدينيّة.

The Social and Economic conditions of Iraq and their Impact on the Decline of the Military Spirit and the Rise of Religious Opposition in the First AH Century

Abstract:

The first century witnesses significant political, social, economic and religious transformations, which resulted due to the emergence of Islam and the great conquests that accompanied large parts of the world known at the time

Of course, new relations have developed, in consequence, between the victorian Arab element and the elements of the conquered peoples

It seems that the last elements took these abrupt and decisive transformations did not wake from this surprise until after a while, Throughout this period, the Arab element has been the most influential and effective factor in the historical events, which we see it clearly in the writings of this era, which it is almost limited to tracing the activities of conqueror's Arabs, in this research, we have had to overlook some of the Arab social, economic and religious elements and their impact on the military spirit decline and the rise of religious opposition movements

المقدمة:

شهد القرن الأول الهجري تحولات سياسية واجتماعيه وإقتصاديّة ودينيّة بارزة نتجت أساساً عن ظهور الأسلام وما واكبه من فتوح عظيمة شملت أجزاء شاسعة من العالم المعروف آنذاك، ونشأت بطبيعة الحال علاقات جديدة على أثر ذلك بين العنصر العربي الغالب وعناصر الشعوب المغلوبة ، ويبدو أنّ العناصر الأخيرة أُخذت بهذه التحولات المفاجئة والحاسمة فلم تفق من هول المفاجأة إلّا بعد حين ، فظلّ العنصر العربي طوال هذه الحقبة هو العامل المؤثر والفعّال في سير الحوادث التاريخيّة ، وهو أمر نلحظه بوضوح في الكتابات التي أرّخت لهذا العصر ، والتي تكاد تقتصر على تتبع نشاطات العرب الفاتحين ، وكان لزاماً علينا في هذا البحث أن نعرّج على بعض ملامح العنصر العربي الأجتماعية والأقتصاديّة والدينيّة وأثرها في تراجع الروح العسكرية وتنامي حركات المعارضة الدينيّة .

عاش العرب قبل الأسلام على شكل قبائل في الجزيرة العربيّة ، وهاجرت مجموعات منهم الى تخوم الجزيرة الشمالية على أطراف العراق وبلاد الشام وذلك في ظروف سياسيّة مناسبة[١].وأما قبائل جزيرة العرب فقد إحتفظ بعضها بطابعه البدوي في حين غلب التحضّر على القبائل التي إستقرّت في المدن ، وطبيعي أن تقوم العلاقات بين بدو الجزيرة وحضرها على التربّص والحذر[٢]، الأمر الذي جعل قريشاً تستغلّ نفوذها الديني المرموق بين القبائل لرعايتها الكعبة وتقوم بإنشاء نظام الإيلاف[٣].

أمّا عرب العراق وبلاد الشام الّذين ينتمون في معظمهم الى أُصول يمانيّة فقد كوّنوا بمساندة الفرس والروم ، دولتين عربيتين إحداهما في الحيرة، والأخرى في جنوب بلاد الشام ،

وقد لعبت هاتان الدولتان دور الحاجز بين الفرس والروم من جهة ، وبين قبائل الجزيرة والتخوم الجنوبيّة للعراق وبلاد الشام من جهة أُخرى،وتميّزت العلاقات بينهما نتيجة لذلك بالتوتّر والعداء الشديد الذي زادته الخلافات الدينيّة حِدّةً وضراوة [٤].

وعندما جاء الأسلام حدثت تطوّرات جوهرية في كيان العنصر العربي بقبائله البدويّة والحضريّة ، وكان لحركة الفتوح العربيّة دور كبير في تطوّر العرب الشامل خلال هذا القرن لإعتبارات كثيرة: منها أنّ هذه الحركة أسفرت عن هجرة واسعة من الجزيرة العربيّة عامة ومن مركز الدولة العربيّة الاسلاميّة في الحجاز خاصّة ، وتمثّلت في خروج الجيوش المتتابعة للفتح ، ونزوح أعداد كبيرة من السكّان للأقامة في الأمصار الجديدة[٥].وترتّب على ذلك أن حدث تخلخل في التوزيع السكّاني للعرب انتقل معه مركز الثقل في الدولة من القلب الى الأطراف[٦].وغدت هذه الأطراف ابتداء من عهد الخليفة عمر بن الخطّاب(رضي الله عنه) تضغط على حكومة المدينة وتسيّرها ، في كثير من الاحيان ، وفقاً لرغباتها ، كما حدث بالنسبة لسكّان الكوفة الّذين دأبوا على مطالبة الخلفاء بتغيير ولاتهم [٧].

ولا شك أنّ حركة الفتوح فتحت الطريق على مصراعيه لإحتكاك العرب بحضارة الشعوب المغلوبة ومدنيّتهم ، وتدفّقت على العرب خيرات وافرة هيّأت لهم حياة رغيدة تاقت معها نفوسهم الى البقاء في أمصارهم والأكتفاء بما فتح الله عليهم من البلاد ، فأخذوا يفضّلون القعود على الجهاد وهو ما يمكن وصفه بتراجع الروح العسكريّة لديهم [٨]. وتعود بوادر هذه الظاهرة الى زمن الرسول(صلى الله عليه وسلّم) إذ ظهرت في غزوة تبوك [٩]، وتجلّت بوضوح في عزوف أهل البصرة والكوفة عن الأشتراك الفعلي في الحروب الداخليّة والخارجيّة على حدّ سواء[١٠].

فضلاً عمّا تقدّم كان هناك الموالي الّذين يعدّون العنصر الثاني من عناصر السكّان المؤثرة في أحداث ذلك العصر ، ونعني بهم المسلمين من غير العرب، وهؤلاء عرفوا في المدن خاصة البصرة والكوفة ، وكانوا في الأصل إمّا عبيداً حررهم أسيادهم العرب وأصبحوا موالي شخصيين لهم ، وإمّا أعاجم إعتنقوا الأسلام أملاً في أن يكون لهم مكان في المجتمع الجديد[١١] الذي لم يكن يعترف بأي مجموعة من الناس خارج تقسيماته القبليّة القائمة . وهذا ما دفع المسلمين الأعاجم الى الارتباط بقبائل الأمصار برابطة الولاء إذ عرفوا بالموالي ، وقد وفّر لهم المجتمع العربي الحماية اللازمة ، وأفاد منهم في توفير الكثير من مقوّمات الحياة

الأقتصاديّة ، إذ كانت في أيديهم أعمال الصيرفة والحرف والتجارة بعد أن إنصرف العرب الى الحكم والأدارة والفتوح[١٢]. والواقع أنّ الموالي لم يكونوا من طبقة إجتماعية واحدة ، إذ نجد بينهم فئة تنتمي الى أُصول عريقة وتجّاراً ودهّاقين ومهنيين وكتّاباً عاش معظمهم في المدن ، أمّا أولئك الّذين عاشوا في القرى ، فقد إنصرف جلّ إهتمامهم الى تأمين زراعتهم ومعاشهم. ومهما قيل في المبادئ والنزعات التي ظلّ يحملها الموالي بعد إسلامهم ، فإنّ جمهرتهم ظلّت موالية للقبائل العربيّة ، وإتخذت نفس مواقفها في الحرب والسلم [١٣].

ويلاحظ في هذا الشأن أنّ أعداد الموالي إزدادت بشكل ملحوظ في البصرة والكوفة ، خاصة بعد منتصف القرن الأول الهجري ويروى أنّ العربي في الكوفة كان يخرج ومعه العشرة والعشرين من مواليه[١٤]. وإستمرّت هذه الزيادة في إرتفاع ، حتى ذهب بعض الباحثين الى أنّ أكثر من نصف سكّان الكوفة كانوا في هذه المدّة الزمنيّة من الموالي[١٥]،وقد أدّى بطبيعة الحال الى تخوّف العنصر العربي منهم والمطالبة بوضع حدّ لغلبتهم على الأمصار كما فعل والي العراق الحجّاج بن يوسف الثقفي (٧٥هـ-٩٥هـ) فيما بعد [١٦]. ويروي صاحب العقد الفريد أنّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان(٤١- ٦٠ هـ) أحسّ بإزدياد نفوذ الأعاجم وتكاثرهم في البصرة والكوفة ، فدعا الأحنف بن قيس التميمي وسمرة بن جندب الهلالي ، وهما من كبار رجال البصرة والكوفة ، فقال لهما (أنّي رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد طعنت على السلف ، وكأنّي أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً منهم وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون؟!) فأيّده سمرة وعارضه الأحنف وأقنعه بألّا يفعل [١٧].ومهما يكن من أمر صحّة هذه الرواية أو عدمه فإن العرب تعصبوا بوجه عام ضدّ الموالي ونظروا اليهم كمواطنين من الدرجة الثانية إذا جاز التعبير، وقد أثّرت هذه النظرة في حياة الموالي الأجتماعيّة ، فأقبل بعضهم على تعلّم العربيّة والتفقّه في الدين وأحرز تفوّقاً ملحوظاً في هذا الميدان عوّضه عن النقص الذي كان يشعر به [١٨] وحقق له مكانة في المجتمع ما كان ليصل إليها عن غير هذا السبيل. ولعلّ ذلك يفسّر لنا ظهور عدد كبير من العلماء والفقهاء الموالي إبتداءً من هذا العصر [١٩] حتى قال الخليفة سليمان بن عبد الملك: (ألا تعجبون من هذه الأعاجم ، إحتجنا إليهم في كلّ شيئ، حتى في تعلّم لغتنا منهم)[٢٠]. ومع ذلك فإنّ فئة أخرى من الموالي ، خاصة طبقة القرّاء منهم ، تأثّرت بالتيارات الحزبيّة التي نادت بالمبادئ الأسلاميّة في العدل والمساواة ، فانضمّوا الى زعماء

الحركات العربيّة التي رفعت لواء الأنتصار لهذه المبادئ كما فعل الخوارج والمختار بن أبي عبيد وزيد بن علي ، أمّا ذوو اليسار والأصول العريقة من الموالي الفرس فقد دخل بعضهم في الاسلام بقلوب غير سليمة ، وظلّوا يحملون في نفوسهم مبادئهم ومعتقداتهم القديمة ، وكان لهم دور في الكيد للإسلام والمسلمين ، وأدخلوا على دينهم الكثير من الأفكار والمفاهيم الغريبة عنه ، ومهما يكن من أمر ، فأن الموالي بوجه عام تمتعوا في هذا العصر o أفضل من مثيله في الدولة الساسانيّة [٢١].

وإذا كان الموالي لم يسجّلوا في ديوان العطاء والرزق ، فإنّ هذا الديوان لم يكن بمقدوره أن يسعهم، كما لم يسع جميع العرب المسلمين. ورغم ذلك فقد سمح للموالي بالأشتراك في الحروب كمشاة لهم نصيب من الغنائم والفيئ ، كما إحتكروا أعمال الدواوين ، وظلّوا عصب الدولة الأقتصادي الذي تعتمد عليه في الزراعة والتجارة وجباية الضرائب والقيام بالأعمال اليدويّة الضروريّة للمجتمع . وكان العرب يدركون في قرارة أنفسهم أهميّة هذا العنصر وأستمراره في الأضطلاع بهذا الدور ، حتى روي أنّ عامر بن عبد القيس المعروف بنسكه وزهده دعا الله يوماً أن يُكثر الموالي بين العرب ، فلمّا سُئِلَ عن ذلك قال جملته المشهورة: (نعم إنّهم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا)[٢٢].وكان وضع الموالي في المجتمع لم يكن يتناسب مع دورهم الأقتصادي في تحقيق الرفاه الذي جنى ثماره السادة العرب ، وكانوا يدركون أهميتهم ويشعرون دائماً بالظلم العربي لهم وعدم مساواتهم للعرب في الأمتيازات الماديّة والسياسيّة ، مما جعلهم يشتركون في كثير من الثورات التي قامت ضدّ الأمويين كما أسلفنا .

والى جانب الموالي من الفرس فقد عرفت المنطقة أنواعاً أُخرى من الموالي شكلّت أقلّيات أخرى في المجتمع مثل الأساورة والسيابجة والزط .وهذه الأقليّات كانت في الأصل جماعات عسكريّة مرتزقة تحارب الى جانب الساسانيين ثمّ إنضمّت الى العرب وشاركت في بعض أحداث العصر السياسيّة . وهناك إختلاف في أصل هذه المجتمعات وإن كان البعض يرى أنّها تنتمي الى أُصول سنديّة [٢٣]. ووجدت بالأضافة الى ذلك جماعات أخرى من الموالي من بلاد الترك والديلم ، أمّا الزنج الذين جُلبوا من سواحل أفريقيا الشرقيّة في زمن غير معروف ، وكانوا يعملون في تنظيف أراضي ما بين النهرين من الأتربة النطرونيّة التي تمنعها من الإنبات[٢٤].ويبدو أنّ الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي عاشوها [٢٥]

دفعت بهم الى التمرّد والثورة مرتين في هذا العصر ، إحداهما في زمن مصعب بن الزبير [٢٦]، والأخرى في عهد الحجّاج بن يوسف الذي يُعَدّ أنساب الأشراف من أهمّ المصادر التي أوردت أخبار تلك الثورة [٢٧]، وذلك قبل قيام ثورتهم الاجتماعية الكبرى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري [٢٨].

وبناءً على ما تقدّم ذكره ، وفضلاً عمّا أوردته بعض المصادر فإنّ عرب العراق كانوا يعيشون في رخاء نسبي ملموس وأنّ بوادر الترف والميل الى الدعة كانت سائدة بين معظمهم . وكما أسلفنا فقد ذكرت هذه المصادر أنّ العربي في الكوفة كان إذا خرج من بيته يتبعه العشرة والعشرون من مواليه[٢٩]، وأنّ الرجل منهم كان يجلس معه في مجلسه العشرون والثلاثون وأكثر من ذلك من أهله ومواليه[٣٠]. ويعود ذلك الى أنّ العرب في الكوفة والبصرة ساهموا مساهمة فعّالة في معظم الفتوح التي تمّت في شرق العراق وشماله ، وأنّ تلك الفتوح درّت عليهم من الغنائم والأموال بما فيها الموالي من أسرى الحروب ما جعلهم ينعمون في بحبوحة من العيش . يضاف الى ذلك أنّ اعداداً غير قليلة منهم عملت في إستثمار الأراضي الزراعيّة وتكوين ملكيّات زراعيّة كبيرة يُديرَها وُكلاؤهم فضلاً عن بناء العقارات والإتجار بها حتى قيل للأحنف بن قيس [٣١]: أيّ المال أبقى وأوفى ؟ فقال : (المساكن والأرضون) [٣٢] . والحق أنّ البصرة كانت تتمتع برخاء أكثر من الكوفة بفضلِ إتّساع فتوحها وإشتغال أهلها بالتجارة والزراعة ، ويظهر أنّ تجارتهم البحريّة إمتدّت حتى جزيرة سيلان في المحيط الهندي. فقد روى الحكم بن سعيد أنّ ملك سردنيب أي سيلان طلب منه أن يصف له أهل البصرة فقال له : (قومٌ لهم نخلٌ يأكلون فضول ثمارهم، وقومٌ لهم دورٌ يُكرونها، وقومٌ لهم أرقّاء يستعملونهم ، وقومٌ لهم أموالٌ يفدون الى الأسواق فيأكلون فضولها) [٣٣] .

ورافق هذا الرخاء انحلال في بعض القيم الخلقيّة والاجتماعية لعدد غير قليل من العناصر العربيّة الاسلاميّة في الكوفة والبصرة .فقد أورد البلاذري رواية لعمر بن شبّة [٣٤] ذكر فيها أنّ الحجّاج في أثناء ولايته على الحجاز إجتمع بسعيد بن جُبير فقيه الكوفة المشهور فسأله عن أحوال العراق فأجابه سعيد : (تركتُ الخمر تُباع بالكوفة ظاهرة ويباع الحكمُ بالرشا) فردّ عليه الحجّاج قائلاً : (والله لئن ولّيتُ لأغيّرن) .فلما قَدِمَ والياً على العراق ردّ شُريحاً على القضاء ومنع أن تباع الخمر [٣٥] . ويُرجّح أنّ الخمرة كانت تَرِدُ الى الكوفة

من الحيرة التي لا تبعد عنها سوى ثلاثة أميال[٣٦].وظلّت هذه الأخيرة فترة من الزمن معقلاً لبقايا العناصر النصرانيّة في العراق .

ولا شك فقد أثّرت هذه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في أهل العراق عامّة وفي العرب منهم خاصّة باعتبارهم العنصر الحاكم والمؤثر في الأحداث في ذلك الوقت ، ونستطيع أن نلمس هذه التأثيرات في تراجع الروح العسكريّة عند عرب العراق والتي أصبحت ظاهرة نتيجة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السالفة الذكر التي أضعفت الحافز المباشر لاستئناف الفتوح والجهاد ، ذلك أنّ عرب البصرة والكوفة كانوا قد قاموا بفتوح كبيرة في شرق العراق وشماله إبّانَ موجة الفتوحات الأولى أيّام كانت هاتان المدينتان لا تزالان تحتفظان بصفتهما العسكريّة كقاعدتي إنطلاق للجيوش العربيّة الإسلامية . فلمّا إنقضى جيل الفتوح وورثَ الجيل الجديد مغانم الفتح التي كانت موقوفة على كلّ مدينة وتحوّلت كلّ من البصرة والكوفة الى مدينة مترفة تتمتّع بالرخاء ويتسلّم أبناؤها العطاء ويسكنون الدور ويقتنون الأموال والعبيد ، تذوّقت نفوسهم طلاوة العيش ومالوا الى الدعة والترف، وأحبّوا الراحة والبقاء في أمصارهم وسط هذا النعيم المقيم [٣٧].وقد تكرّرت شكوى الخلفاء والولاة من عرب أهل العراق لتخاذلهم في القتال الى جانبهم وعدم صدق عزيمتهم في الحروب حتى إتّهموهم بالشقاق والنفاق [٣٨].وليس الأمر شقاقاً ولا نفاقاً وإنّما هو طبيعة النفس البشريّة في الجنوح الى الدعة والراحة والتمسّك بأسباب المتعة التي تهيّأت لها . ولعلّ ذلك يُفسّر لنا نكوص الكثير من الجيوش العربيّة التي خرجت من الكوفة والبصرة للاشتراك في حروب غير مأمونة النتائج وتوقهم للعودة ثانيةً الى ديارهم ، وقد ظهرت هذه البادرة الخطيرة بشكل واضح في أثناء المواجهة العسكريّة التي تمّت بين عرب العراق وعرب الشام زمن الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومعاوية بن أبي سفيان ، وخلال الحروب مع الخوارج ، وعانى منها بعد ذلك ولاة العراق وقادته بينهم بشر بن مروان والمهلّب بن أبي صفرة والحجّاج بن يوسف الذي لجأ الى السيف لحمل عرب الكوفة والبصرة على المشاركة في حرب الخارجين على الدولة ومواصلة الفتح والجهاد ، يضاف الى ذلك أنّ عدم إيمان أهل العراق بشرعيّة الحكم الأموي جعلهم يحجمون عن الدفاع عنه . وقد أورد الطبري وصفاً دقيقاً رواه أبو مخنف [٣٩] عن تقاعس أهل البصرة والكوفة عن القتال نجتزأ منه بعض الفقرات لأهميّته ، يقول راوية العراق : أنّ (المهلب بن أبي صفرة خرج بأهل البصرة حتى نزل رام هرمز [٤٠] فلقي بها الخوارج ،

فخندق عليه وأقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة... حتى نزل من المهلّب على ميل أو ميل ونصف حيث تراءى العسكران برام هرمز ، فلم يلبث إلا عشراً حتى أتاهم نعي بشر بن مروان ... فارفضّ ناس كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة ... فبلغ ذلك خالد بن عبد الله بن أُسيد (عامل البصرة بعد بشر) فكتب الى الناس وبعث رسولاً يضرب وجوه الناس ويردّهم فقرأ الكتاب على الناس وقد جُمِعوا له: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من خالد بن عبد الله الى مَن بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين... عباد الله ارجعوا الى مكتبكم وطاعة خليفتكم ولا ترجعوا عاصين مخالفين فيأتيكم ما تكرهون ، أقسم بالله لا أثقف عاصياً معه كتابي هذا إلاّ قتلته إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله... فلمّا فرغَ من قراءته لم يلتفت الناس الى ما في كتابه ، وأقبل – بعضهم– حتى نزلوا قرية لآل الأشعث إلى جانب الكوفة وكتبوا الى عمرو بن حريث – عامل الكوفة – : أمّا بعد فأن الناس لمّا بلغهم وفاة الأمير رحمة الله عليه تفرّقوا فلم يبقى معنا أحد ، فأقبلنا الى الأمير والي مصرنا وأحببنا ألاّ ندخل الكوفة إلاّ بإذن الأمير وعلمه ، فكتب إليهم : أمّا بعد فإنّكم تركتم مكتبكم وأقبلتم عاصين مخالفين فليس لكم عندي إذن ولا أمان) . ويختتم أبو مخنف روايته قائلاً :(فلمّا أتاهم ذلك انتظروا حتى إذا كان الليل دخلوا الى رحالهم فلم يزالوا مقيمين حتى قَدِمَ الحجّاج بن يوسف) [٤١]، الذي عانى من هذه الظاهرة الكثير وحمل الناس بقوّة السيف على الخروج الى القتال ، وقد ذكرت المصادر التاريخيّة أنّ الحجّاج بعد قدومه العراق واليّاً خطب بالناس من أهل الكوفة خطبته المشهورة التي أوردتها المصادر العربيّة بأشكال مختلفة وزاد بعض هذه المصادر في نصّها مما لا يخرج عن التهديد والوعيد لأهل العراق الذين تقاعسوا عن الجهاد ، وقد أورد البلاذري في أنساب الأشراف خطبة الحجّاج نقتبس منها ما يتعلّق بتهديده لأهل العراق قائلاً (... إنّه لو ساغت لأهل المعصية معصيتهم ما جُبي فيء ولا قوتل عدو ولعُطلّت الثغور وأُهملت الأمور ، ولولا أنّكم تغزون كرهاً ما غزوتم طوعاً ، وقد بلغني رفضكم للمهلّب وإقبالكم الى مصركم عصاة مخالفين ، وأقسم بالله لا أجد أحداً بعد ثلاثة ممّن أخلّ بمركزه إلّا ضربت عنقه)[٤٢] .

أمّا الطبري فقد ذكر نحو ذلك الّا أنه أضاف أنّ الحجّاج هددّ كلّ مَن يتخلّف عن الخروج للإنضمام لجيش المهلّب بالقتل ومصادرة أمواله [٤٣] وهدم منزله [٤٤] . ويضيف المدائني أنّ الحجّاج إجتمع بأهل الكوفة والى كثير من العامّة فقال لهم : (أخبروني عن

الولاة قبلي ما كانوا يعاقبون به العصاة ؟ قالوا: الضرب والحبس ، قال: لكنّي لا أُعاقبهم إلاّ بالسيف،إنّ العصية لو ساغت لأهلها ماقُتل عدو ولا جُبي فيء ولا عزّ دين ولو لم يغز المسلمون المشركين لغزاهم المشركون ، وقد أجّلتكم ثلاثاً فمن وجدته بعد ثالثة من جيش إبن مخنف فَبَرِئت منه الذمّة ، وقال ليزيد بن علاقة السكسكي صاحب شُرَطِه : إجعل سيفك سوطاً فمن وجدته بعد ثالثة عاصياً فاقتله)[٤٥] .فكان الحجّاج أوّل مَن إستخدم هذه العقوبة ضدّ العصاة [٤٦] .

والواقع أنّ ظاهرة تراجع الروح العسكرية قد ظهرت بين عرب العراق في وقت مبكّر وكانت نسبة إنتشارها بين المقاتلين تزيد كلّما تقدّمَ الزمن وتبدّلت الأجيال وزادت نسبة الرخاء ، يدلّ على ذلك تصاعد مطرد في شدّة العقوبة المفروضة على الفرار من الخدمة العسكريّة أو المخلّين بمراكزهم ومسالحهم كما كانوا يسمّون . فقد روى الشعبي [٤٧] أنّه (كان الرجل إذا أخلّ بوجهه الذي يُكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلي تنزع عمامته ويقام بين الناس فلمّا ولّي مصعب بن الزبير أضاف إليه حلق الرؤوس واللحى ، فلمّا ولّي بشر بن مروان أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين في يدهِ في حائط فيخرق المسماران يدهُ وربّما مات ، فلمّا جاء الحجّاج ترك ذلك كلّه وجعل عقوبة مَن يخلّ بمكانه من الثغر أو البعث القتل) [٤٨] .

أمّا فيما يتعلّق بتنامي المعارضة الدينيّة فكان طبيعيّاً أن تشتد هذه المعارضة لمواجهة مظاهر الأنحلالالأجتماعيوإقبال البعض على شراء الخمر علناً من الأسواق كما أسلفنا ، وتطوّر الحياة السريع في المدن وما يرافق هدا التطوّر والأزدهار من مشاكل إجتماعيّة وخُلقيّة جعلت جانباً من سكّان البصرة والكوفة يبتعدون بعض الشيء عن القيم الأسلاميّة التي كانت سائدة في السابق .وقد ذكر صاحب قطب السرور في أوصاف الخمور عدّة وقائع وحكايات تدلّ على إقبال عدد غير قليل من عليّة القوم ومن الشباب على شرب الخمر وعقد مجالس الشراب والأُنس والمنادمة [٤٩].

يضاف الى ذلك ما كان يصدر عن العمّال والولاة وأصحاب السلطة من تصرّفات وعقوبات بدت مغايرة لما كان يتّبعهُ الحكّام في السابق [٥٠] . وقد أدّى ذلك الى قيام جماعة من المسلمين عُرفت بالقرّاء لأنهم كانوا يحفظون القرآن ويعلّمونه الناس ، وتبنّت هذه الجماعة الدعوة الى الإصلاح والتمسّك بالقيم الإسلامية الأولى ومناهضة الظلم والمنكر .وقد ساعد على إزدياد قوّة تأثير هذه الجماعة اتصالها بجمهور المسلمين في المساجد وانتماء زعمائها

الى أُصول دينيّة ارستقراطيّة بحكم كونهم من التابعين وأبنائهم وأبناء الصحابة الّذين أمّوال العراق بأعداد كبيرة في أعقاب موجة الفتوح الأولى . ولم يكن أولئك القرّاء على درجة واحدة من حيث معارضة الأوضاع القائمة وانتشار النفوذ إذ كان بعضهم يكتفي بالتقية أي إظهار الطاعة للحاكم الظالم وإخفاء مخالفته إتقاءً لشره وبطشه[٥١] . وكان الحسن البصري فقيه البصرة يرى هذا الرأي ، والبعض الآخر كان يغلب عليه التطرّف ويعتقد بوجوب مناهضة الظلم والمنكر والقائمين عليهما ونصرة الحق وإعلاء شأن الدين وقيمه والأهداف التي يدعو الى تحقيقها في الدنيا والآخرة . وقد إنضمّ نفر من هؤلاء الى الخوارج في حين مهّد آخرون الى قيام الثورات المسلّحة ضدّ ولاة بني أميّة في العراق وإشتركوا فعلياً في تلك الثورات كما حدث في كثير من الحركات التي واجهها الحجّاج على وجه الخصوص . وهناك فئة قليلة آثرت السلامة وإعتزلت الناس وتحاشت التعبير عن رأيها في الأحداث خوفاً من التعرّض للفتنة ، وقد عرفنا من هؤلاء في أعقاب تطوّر الأمور بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) : عبد الله بن عمر والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقّاص الذي قال حين طُلب منه الاشتراك الى جانب أحّد الفريقين بعد وقوع الحرب الأهلية بين أهل العراق وأهل الشام لأوّل مرّة : لا أُقاتل حتى تأتوني بسيف يعقل ويبصر وينطق فيقول أصاب هذا وأخطأ ذاك [٥٢] .

ونسمع عن معتزلة في العراق إذ كانوا يعيّرون القرّاء والفقهاء الّذين يجلسون في المساجد ويجتمع حولهم الناس وبينهم بعض الموالين للسلطة كالعريف[٥٣] والشرطي . وقد ردّ إبراهيم النخعي أحّد كبار فقهاء الكوفة هذه التهمة قائلاً: (نجلس في المسجد فيجلس إلينا العريف والشرطي أحبّ من أن نعتزل فيرمينا الناس برأي يهوي) [٥٤] .

ويرى فلهاوزن (أنّ طبقة القرّاء كان لها تأثير قوي في البصرة والكوفة لأنهم أهابوا بالقرآن حكماً ووسيطاً في المشاكل التي تعرض للمسلمين وحملوا العامّة على هذا الرأي [٥٥] .وقد لعبوا دوراً سياسياً في عدد من الحوادث الهامّة إذ كانوا من أشدّ الناس عطفاً على الموالي من المسلمين الجُدد ألذين أجبرهم الحجّاج على الجلاء عن المدن والعودة الى قراهم كما إنضمّوا الى ثورة إبن الأشعث ضدّ الحجّاج والحكم الأموي في العراق ، غير أنّ فشل هذه الثورة ألحق بهم خسائر كبيرة وزعزع مكانتهم [٥٦] .

وفضلاً عمّا تقدّم فقد عجز بعض الولاة والعمّال عن ضبط العراق ، مثلاً ، عندما إستعاد الخليفة عبد الملك بن مروان العراق من نفوذ عبد الله بن الزبير وقتل أخاه مصعب في جمادي الآخرة سنة٧٢ هجري خلف على الكوفة قبيل عودته الى الشام أخاه بشر بن مروان ، كما عيّن على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أُسيد وهو من البيت الاموي [٥٧] . وكان خطر الخوارج أكبر خطر يتهدّد البصرة والكوفة آنذاك ، وقد تمكّنت قوّات أبي فديك الخارجي أن تلحق هزيمة منكرة بجيش كبير أرسله عامل البصرة ، وقد أوغرت هزائم البصريين المتكرّرة قلب الخليفة عبد الملك على عامله على البصرة خالد بن عبد الله وعدّهُ مسؤولاً عن تلك الهزائم لعدم إختياره القادة الأكفّاء للقتال [٥٨] . وكان ذلك في مقدّمة الأسباب التي حملت الخليفة عبد الملك على عزله وضم ولاية البصرة الى أخيه بشر لأنّ واليها السابق خالد (أساء التدبير وعجز عن العدو وضعف عن أهل المصر) [٥٩] .

ما تقدّم من وصف لأحوال العراق في تلك الحقبة يشير بوضوح الى الحالة المتردية التي كان عليها العراق آنذاك والتي صوّرها لنا بعض الرواة أصدق تصوير على لسان الخليفة عبد الملك إذ نسبوا إليه قوله : (إنّ العراق كدرٌ ماؤها ، وكثرٌ غوغاؤها ، وأمرٌ عذبها ، وعظمٌ خطبها ، وظهرٌ ضرامها ، وعسرٌ إخمادُ نيرانها ، فهل من ممهّد لهم بسيفٍ قاطع ، وذهن جامع ، وقلبٌ ذكيّ ، وأنفٌ حميّ ، فيخمد نيرانها ، ويردع غيلانها ، وينصف مظلومها ، ويداوي الجرح حتى يندمل ، فتصفوا البلاد ويأمن العباد ؟) [٦٠] .

وسواء صحّت نسبة هذا القول الى الخليفة عبد الملك أم لم تصح فإنّ الرواية تُعَدّ في حدّ ذاتها وصفاً دقيقاً لحالة العراق في تلك الحقبة .

وهنا لابدّ من الأشارة الى أنّ الأحوال السالفة الذكر التي سادت العراق خلال القرن الأول الهجري وتحديداً على عهد الأمويين خاصةً ما يتعلّق منها بتراجع الروح العسكريّة وفقدان الانضباط في الجيوش المحاربة وكثرة الفتن والثورات وعدم كفاءة العمّال والولاة ، كلّ ذلك هدّدَ بضياع العراق من يد الأمويين وأدى الى إضطراب أحواله وقلّة خراجه وعدم الاستفادة من موقعه الاستراتيجي كقاعدة عسكريّة هامّة للجيوش العربيّة لمواصلة عمليات الفتح في شرق الدولة وتأمين حدودها الشرقيّة التي لم تتمتع بالقوّة والثبات لوجود عنصر محارب قوي هو الترك إذ لم يكن يقلّ عن العنصر العربي بسالةً في القتال ، وقد أقضّ هذا الوضع

مضاجع الخلفاء الأمويين في دمشق وجعلهم يُصرّون على إستئناف الفتوح في شرق الدولة للقضاء على أعدائهم وتأكيد هيبة دولتهم .

الهوامش:

١) تذهب البحوث الحديثة الى أنّ الجفاف في وسط الجزيرة العربيّة كان ولا يزال جفافاً تاريخيّاً ولم يكن جفافاً تدريجيّاً ممّا جعل البادية تضغط بإستمرار على الأطراف الحضريّة ، وينجح هذا الضغط في حالة ضعف الحكومات الحضريّة وعدم إستطاعتها ردّ هجرات البادية ، (من محاضرة ألقاها الدكتور عبد العزيز الدوري على طلبة الدراسات العليا الأسلاميّة بجامعة الكويت ١٩٧٠/١١/٢١) ويُنظر أيضاً ، الدوري: مقدّمة في تاريخ صدر الأسلام ، (ط٢ ،- بيروت١٩٦١) ، ص٢٨ وما بعدها.

٢) أحمد ابراهيم الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسيّة العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة (ط١ – القاهرة ١٩٦٨) ص ٢٠ .

٣) يُنظر ما جاء عن الإيلاف : محمد بن حبيب : ابو جعفر البغدادي (ت٢٤٥هـ): المنمّق في أخبار قريش ،(حيدر آباد ١٩٦٤) ، ص٣١- ٣٩ .

٤) تبنى الغساسنة المذهب اليعقوبي المسيحي في حين تبنى المناذرة المذهب النسطوري ، يُنظر : أحمد أمين : فجر الأسلام ، (ط٧ – القاهرة ١٩٥٥) ص ١٩ .

٥) فلهاوزن ، يوليوس : تاريخ الدولة من ظهور الأسلام الى نهاية الدولة الأمويّة ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة (ط٢- القاهرة ١٩٦٨) ص٥٤ / وينظر أيضاً حاشية ١ ص ٥٤ من نفس المصدر إذ يذكر مترجم الكتاب أنّ البريق بن عياض شاعر الهذليّين يشكو من أنّه بقي وحده شيخاً هرماً ومعه قليل من النساء والأطفال في بلاد كان يعمرها ناس كثيرون ، ويردّد ذلك ابو خراش وغيره .

٦) نفس المصدر ، ص ٥٣ .

٧) يُنظر : المحمدي ، حمّاد فرحان حمّادي : سعد بن أبي وقّاص ، رسالة ماجستير مقدّمة الى مجلس كليّة التربية (إبن رشد) جامعة بغداد (١٩٩٥غير منشورة)، ص ٩٨ .

٨) الدوري : مقدّمة في التاريخ الأقتصادي العربي ، (بيروت ١٩٦٩) ، ص ٢٣ .

٩) إبن هشام ، أبو محمدعبد الملك (ت٢١٣ هجري) : سيرة النبي صلّى الله عيه وسلّم السيرة النبويّة (القاهرة ١٩٣٦) ج ٤ ص ١٧٥- ١٨٥ / ويُنظر أيضاً في : القرآن الكريم ، سورة التوبة ، الآيات ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٣ .

١٠) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربيّة ، ص٢٠٩ .

١١) الدوري : مقدمة في التاريخ الأقتصادي،ص ٤٠ .

١٢) الدوري : نفس المصدر والصفحة .

١٣) أحمد أمين : فجر الأسلام ، ص ٩٣ .

١٤) المبرد ، ابو العبّاس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦ هجري) : الكامل ، تحقيق محمد ابو الفضل أبراهيم والسيّد شحاته ، (القاهرة) ،ج ١ ص ٣٨٠ .

١٥) أحمد أمين : فجر الأسلام ، ص ٩٢ .

١٦) إبن عبد ربّه ، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨ هجري) : العقد الفريد (القاهرة ١٩٦٧) ج ٣ ص ٤١٦ .

١٧) إبن عبد ربّه : المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٣١٣ / ويُنظر أيضاً : الراغب الأصفهاني ، ابو القاسم حسين بن محمد (ت ٥٢٠ هجري) : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، (بيروت ١٩٦١) ، ج ١ ص ٣٥٠ ، إذ تُنسب القصّة الى زياد بن أبيه .

١٨) شاكر مصطفى ،(الدكتور) : في التاريخ العباسي ، (دمشق ١٩٥٧)، ص ١٠ .

١٩) يُنظر ما جاء في نص هذا الموضوع في : أبو حيّان التوحيدي ، علي بن محمد بن العباس (ت٤٠٠ هجري) : البصائر والذخائر ، تحقيق إبراهيم الكيلاني ، (دمشق ١٩٦٤) ، مجلّد ٢ ، ص ٤١٤- ٤١٧ / وإبن عبد ربّه : العقد الفريد ، ج ٣ ص ٤١٥ ، ٤١٧ .

٢٠) الراغب الاصفهاني : محاضرات الأدباء ،ج ١ ص ٣٤٥ .

٢١) علي حسين الخربوطلي(الدكتور) : تاريخ العراق في ظلّ الحكم الأموي (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ٢٥٩ .

٢٢) إبن عبد ربّه : العقد الفريد ، ج٣ ص٤١٤ .

٢٣) البلاذري ، أحمد بن يحي بن جابر، (ت٢٧٩ هجري) : فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٦)ص ٤٦٠- ٤٦٣ / شارل بلات ، (الدكتور) : الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء ، ترجمة الدكتور أبراهيم الكيلاني ، (دمشق ١٩٦١) ، ص ٦٨ / صالح أحمد العلي ، (الدكتور) : التنظيمات الأجتماعيةوالأقتصاديّة في البصرة في القرن الأول الهجري ، (ط ٢- بيروت ١٩٦٩) ، ص٨٣- ٨٥ .

٢٤) شارل بلات : الجاحظ ، ص ٧٨ .

٢٥) يُنظر :أبو حيّان التوحيدي : الأمتاع والمؤانسة،تحقيق الدكتور أبراهيم الكيلاني ، (دمشق ١٩٦٤) ، ج ١ ص ٧١ ، ٧٤ .

٢٦) البلاذري : أنساب الاشراف ،(مصوّر دار الكتب المصريّة رقم١١٠٣ تاريخ)، م ٧ ورقة ١٣/ ويُنظر أيضاً: شارل بلات : الجاحظ ، ص ٧٨ .

٢٧) البلاذري : أنساب ألاشراف ، م ٧ ، ورقة ١٣ ، ١٤ .

٢٨) أحمد علي : ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد (ط ١- بيروت ١٩٦١) ، ص ١٨ .

٢٩) المبرد : الكامل ، ج ١ ص٣٨٠ .

٣٠) المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين(ت٣٤٦ هجري) : مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت ١٩٦٥) ، ج ٣ ص١٢٦ .

٣١) الأحنف بن قيس: سيّد تميم توفى (٧٢ هجري) ، أحّد دهاة الفصحاء الفاتحين ، يُضرب به المثل في الحُلُم ، ينظر: الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، (ط ٣- بيروت ١٩٦٩) ، ج ١ ص٢٦٢ .

٣٢) الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، ج٤ ص٦٠٠ .

٣٣) المصدر نفسه .

٣٤) عمر بن شبّه: راويه ومؤرّخ ومحدّث وشاعر من البصرة تُنسب إليه عدّة تصانيف ، (ت٢٦٢ هجري) ، يُنظر: الزركلي ، الأعلام ، ج ٥ ص٢٠٦ .

٣٥) البلاذري : أنساب ، م ٧ ورقة ٤٤ .

٣٦) ياقوت الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هجري) : معجم البلدان ،(بيروت ١٩٥٥) ، ج ٢ ص٣٨٢ .

٣٧) يُنظر: الدوري : مقدّمة في التاريخ الأقتصادي العربي ، ص ٢٣ .

٣٨) يُنظر: حسين البراقي : تاريخ الكوفة (ط ٣- النجف ١٩٦٨) ، ص٢٤٣- ٢٤٨ .

٣٩) أبو مخنف ، لوط بن يحي الأزدي مؤرخ كوفي مشهور أُخذ عنه كثيرمن أخبار العراق وفتوحها، ويُنسب إليه ثلاثون مُصنّفاً مفقوداً (ت١٥٧ هجري) ، يُنظر: عبد الصاحب الدجيلي: أعلام العرب ، ج١ ص ٦٠ ، ٦١ .

٤٠) رام هرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان ، إبن عبد الحق البغدادي ، صفي الدين عبد المؤمن (ت٣٧٩هجري) : مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي البجّاوي ،(القاهرة ١٩٥٤) ، ج ٢ ص ٥٩٧ .

٤١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ، (ت٣١٠هجري) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة ١٩٦٠- ١٩٦٩) ، ج ٦ ص١٩٦- ١٩٩ .

٤٢) البلاذري : أنساب الاشراف ، م٧ ورقة ٢ ، ٣ .

٤٣) الطبري : تاريخ الرسل ، ج٦ ص٢٠٤ .

٤٤) زيادة عند إبن عبد ربّه : العقد الفريد ، ج٤ ص١٢٢ .

٤٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، م ٧ ورقة ٣ .

٤٦) المصدر نفسهُ ، ورقة ٤ .

٤٧) الشعبي: عامر بن شراحيل ، من التابعين ، راوية من الكوفة ، إتّصلَ بعبد الملكوالحجّاج ، وهو شاعر وفقيه ، ينظر: إبن خلّكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هجري) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٨) ، ج٢ ص ٢٢٧ .

٤٨) أبن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هجري) : كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر ، (٧ مجلّدات ، ط ٢- بيروت ١٩٦٧) ، م٣ ص٩٤ .

٤٩) الرقيق النديم ، أبو إسحق أبراهيم بن القاسم (ت٤١٧هجري) : قطب السرور في أوصاف الخمور ، تحقيق أحمد الجندي ،(دمشق ١٩٦٩) ، ص ٧ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٠٥ .

٥٠) قال زياد بن أبيه في خطبته (البتراء) : لقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وأحدثنا لكلّ ذنبٍ عقوبة ، ينظر: أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب في العصور العربيّة الزاهرة (ط٢- القاهرة١٩٦٢) ، ج٢ ص٢٧٢ .

٥١) أبن بدران ، عبد القادر بن احمد بن مصطفى الدمشقي (ت١٣٤٦هجري) : تهذيب تا ريخ أبن عساكر (٧أجزاء- دمشق ١٣٢٩) ، ج٤ ص١٦٥ ، ١٦٦ .

٥٢) طه حسين ، (الدكتور) : الفتنة الكبرى ،(ط٧- القاهرة ١٩٦٨) ، ص٥ .

٥٣) العريف: موظّف يختاره العامل أو الوالي لتسلّم العطاء وتوزيعه على مجموعة من الأفراد تسمّى عرافة ، وهو مسؤول عن جميع الجندعند النفير، يُنظر: صالح العلي : التنظيمات الأجتماعيّة والاقتصاديّة في البصرة ، ص ١١٥- ١١٦ / وينظر أيضاً: Encyclopaedia of Islam (New Edition) Vol, 1.p629,article ((Arif)).

٥٤) أبن سعد، أبو عبد الله محمد (ت٢٣٠هجري) : الطبقات الكبرى ، (بيروت١٩٦٠) ، ج ٦ ص ٢٧٣ .

٥٥) فلهاوزن ، يوليوس : الخوارج والشيعة في العهد الاموي ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ١٤ .

٥٦) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعيّة والأقتصاديّة في البصرة ، ص٥٨ .

٥٧) خالد بن عبد الله بن خالد بن أُسَيد بن أبي العيص بن أميّة بن عبد شمس ، يُنظر: إبن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ١١٣ .

٥٨) الطبري : تاريخ الرسل ، ج ٦ ص ١٧١ .

٥٩) البلاذري : أنساب الاشراف ، م ٧ ورقة ٢ .

٦٠) الأبشيهي ، أبو الفتوحشهاب الدين محمد بن أحمد (ت٨٥٢هجري) : المستطرف في كلّ فن مستظرف ، مراجعة عبد العزيز سيّد الأهل (القاهرة- مطبعة المشهد الحسيني- جزءان-) ، ج١ ص ٥٠ ، ٥١ / ويُنظر: إبراهيم الكيّلاني (الدكتور) : الحجّاج الحاكم والخطيب ، (دمشق ١٩٤٠) ، ص٥٨ .